القُفّة

حكاية

بقلم يوسف غصوب

١

كانت الباخرة تشقّ بنا عباب اليمّ ، وكان صديقي «جوّاب» متكئاً على الدرابزين ، ينظر الى البحر تارة والى الافق أخرى ، ولسانه لا يكلّ ولا يملّ من الثرثرة وسرد الاخبار. فانّه رحّالة لم يترك بلداً الّا زاره ، ولا قطراً الّا راده . وقد التقط في تنقلاته واسفاره من القصص والروايات ما يملأ المجلدات.

وكان ان التفت التفاتة الى عرض البحر ، فبدت له في الافق البعيد ، تحت اشعة الشمس الجانحة الى الغروب ، جزيرةٌ كأنها مركب عظيم . فصفّق بيديه ، واشار الى الجزيرة قائلاً :

ــ اترى هذه الجزيرة في الافق ؟ ان لها ، والله ، لخبراً غريباً . لم تكن منذ خمسين سنة شيئاً معروفاً بل ارضاً خاوية خالية كجزائر السندباد البحري . اما الآن فقد سارت في سبيل التقدم والعمران شوطاً بعيداً . الا تسألني كيف كان امرها ؟

فقلنا له : وهل ندع احداً يسألك شيئاً ؟ فانك لا تفتأ تتكلم.

وكنا قد اقتربنا من الجزيرة بعض القرب ، فظهرت فيها آيات العمران من بنايات عالية ، واشجار باسقة ، وقد اخذت الاشعة الكهربائية تمتد في جنباتها وتنعكس في شواطئها . ثم تابع جوّاب حديثه فقال :

ـــ إنّ قصتي هذه لأشبه شيء بقصص الجائز . على انها صحيحة لا شك فيها ، وقد قرأتها في الكتب ، وسمعتها من سكان الجزيرة :

قيل ، والله اعلم ، انه كان ، غير بعيد من هنا ، على ساحل البلاد اليمنيّة رجل قد اطمأنت نفسه الى الخير ، وانفتح قلبه للشفقة والرحمة . فما كانت تسنح فرصة الّا اغتنمها لسداد عوز او دفع كربة . وكان في سعة من العيش تمكنه من الاحسان والاستسلام لاعمال البر ومساعدة الفقراء والبائسين . وكان قد اخذ على نفسه عهداً ان لا يترك يوماً يمرّ به دون ان يأتي صنيعاً او معروفاً . وقد حفظ من الامثال السائرة شيئاً كثيراً بمعنى :

اصنع جميلًا ، ولو في غير موضعه ، فلا يضيع جميل اينما صُنعا

و من يصنع الخير لا يحرم جوائزه ، لا يذهب العُرف بين الله والناس

و « اصنع جميلًا وارمِ في البحر » الخ .

وقد اشتهر امر صاحبنا حتى اصبح يُشار اليه بالبنان . وانقسم الناس فيه فئتين : فمنهم من اعجب به ، ومنهم من جهله وعدّه من البلهاء . على انه كان في المدينة فئة ثالثة مغرمة به ، وهي فئة الفقراء والمحتاجين . فانه ما كان ليميّز في احسانه بين النوعين .

واتفق يوماً ان هذا الرجل قضى نهاره ولم يتسنَّ له ان يحسن الى احد . فرجع الى البيت حزيناً كئيباً ضيّق الصدر ، كأنما هو ينتظر كارثة او شرّاً . ولما رأته امرأته على هذه الحال اضطربت وقلقت فسألته عمّا به ، فقال لها :

ـــ أرى ان اهل المدينة قد اثروا جميعاً ، فاني لم اتمكن هذا اليوم من اعانة احد .

ـــ ازك لا تزال على شنشنتك هذه . ترمي دراهمك من النوافذ ولا تفكر في غدك . ثم تحزن لانك لم تستطع التبذير يوماً واحداً . فوف يكون لك آخرة تأكل فيها نعلك ! الا تشكر الله ان نعمه قد عمّت حتى اصبح جميع الناس في غنى؟

ـــ ولكن ... والعهد الذي قطعته على نفسي ؟..

وجلس الرجل على شرفة في داره تطلّ على البحر . واخذ يدخن «اركيلته» ،

ويفكر في امره مُقطّب الحاجبين كانه يحلّ أزمة عالميـة . وانتبه الى البحر فاذا الامواج في هياج عظيم تعلو وتخفض وتتكسر على الشاطئ وعلى جوانب البيت وتضج ضجيجاً هائلاً ، كانما هي نفوس غرقى تطلب النجدة.

وما هي الا هنيهة حتى مرّ امام عيني صاحبنا المثل القائل « اصنع جميـلاً وارمِ في البحر ». فقام لساعته يصفق بيديه وينادي امرأته باعلى صوته قائلاً : « وجدت ! وجدت ! »

فهرولت المرأة خائفة على زوجها ، ظانة انه اصيب بمسّ من الجنّ . فلما صارت بالقرب منه قال لها :

ـــ اسرعي ، اسرعي . هيئي طعام عشرة او عشرين من الرجال وضعي الكل (الطعام لا الرجال) في قفة ، واحكمي سدّها لنلقيها في البحر . اما سمعتِ المثل : « اصنع جميلاً وارمِ في البحر ! »

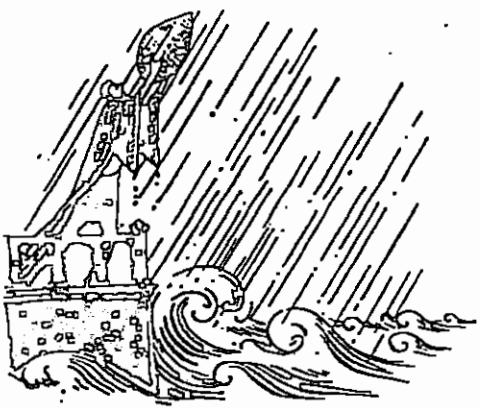

ولما انجزت المرأة عملها اخذ الرجل القفة بكلتا يديه ، ورفعها في الفضاء كانها تقدمة للآلهة ، ثم رماهـا في اليمّ المضطرب . فغاصت ثم عامت ، واخذت تعلو وتسفل مع الامواج حتى غابت عن الابصار . . .

٢

كان في ذلك الوقت باخرة بين ايدي العاصفة تنادي المدد وتطلب النجدة ، ولا من مجيب . فقاومت الرياح ما استطاعت ، ثم انتصرت عليها الرياح ، فانكسرت وابتلعتها المياه ، وانتثر ركابها في اليمّ ، فمنهم من غرق ، ومنهم من حملتـه الامواج على بعض الانقاض الى جزيرة قريبة (وهي هذه الجزيرة التي تراهـا الآن)

ولمَّا أشرق الصباح ، وعاد الى الذين نجوا من الغرق روعهم ، هنأ بعضهم بعضاً بالنجاة . ثم نظروا الى الجزيرة ، فاذا هي مقفرة قاحلة ليس فيها الا بعض شجرات لا ثمار عليها ، ولما طال بهم الوقت جاعوا وعطشوا واخذوا يتخوَّفون من مغبَّة امرهم . وكانوا قد نصبوا عوداً على شكل سارية فوق رابية وعلقوا فيه قميصاً يستلفتون به ما يمرّ من المراكب .

وكان هؤلاء الناس من السيّاح الاميركانيين ذوي الثروات الطائلة . فشقّ عليهم ان يصبحوا بين ليلة وضحاها أُلوبة في ايدي الجوع والشقاء ، وقد كانوا بالامس ملوك العالم لا ينال النظر اعالي رؤوسهم لارتفاعها ، ولا تسهم ثيابهم لانتفاخها بالعظمة والعجرفة . فجلسوا بعضهم قبالة بعض يحاولون التحدّث والهزل ، ولا يصعد من صدورهم الّا التأوّه والتولّه . ثم اخذوا ينذرون النذور . فقال احدهم : انا ان نجوت بنيت كذا وكذا كنائس . وقال آخر : انا ان خلصت من هذه المصيبة شيّدت المستشفيات . وقال غيره : افضل شيء نصنعه هو تعمير هذه الجزيرة ، حتى اذا التجأ اليها غيرنا من الغرقى وجد فيها ما نحن معوزون اليه الآن . وبينما هم كذلك ، اذ بدا في البحر شيء مستدير يرفعه الموج ويضعه ، وهو يقترب من الشاطئ . فوقف الجميع يحدّقون الى هذا الشيء المستدير ، وقد برقت في عيونهم بوارق الامل . ولم يتمالك احدهم ، فنزع ثيابه ، ورمى بنفسه في البحر ، وسبح حتى وصل الى ذلك الشيء . فاذا هو قفة كبيرة محكمة اللفّ . فاخذ يدفعها امامه حتى صارت عند رفاقه . فاجتمعوا حواليها حلقة وفتحوها . ولمَّا وقع نظرهم على الطعام تخاطفوه تخاطفَ الاولاد . ولمَّا شبعوا عادت اليهم نفوسهم وابتساماتهم ، وقاموا يتجوّلون في الجزيرة ، وقرروا استثمارها شأنَ الاميركانيين في كل امر . فألفوا شركة وعينوا عدد الاسهم والسندات . واول شيء اجمع الرأي عليه ان يشيدوا مطعماً للغرباء والفقراء يأكلون فيه ثلاثة ايام مجاناً ، يفتشون في اثنائها عن عمل او خدمة في الجزيرة .

وبينما اصحابنا منهمكون في وضع الخرائط والرسوم ، اذ بدت باخرة تطرز الافق بدخانها ، فصعدوا جميعاً الى الرابية حيث نصبوا الاشارة واخذوا

يلوّحون بتاديلهم ويصيحون باعلى صوتهم ، حتى انتبــه اليهم الربان فارسل الزوارق ...

٣

الاميركان ! وما ادراك ما الاميركان ! قوم سريعو العمل لا يترددون في امر قرروه . لم يمض بضع سنوات حتى اصبحت الجزيرةُ عامرةً آهلة ، يسبح في سمائها دخان المعامل ، وتمجّ في بطونهــا المحرّكات والآلات ، وترسو في مرفأها اضخم البواخر في طريقها الى الشرق الاقصى . وقام في وسط الجزيرة مطعم عظيم يأتيه الناس من كل مكان يأكلون فيه ويشربون مدة ثلاثــة ايام مجاناً ، ولا من يسألهم عن اسمهم ولا عن قصدهم.

واشتهرت الجزيرة في الانحاء ، وامتدّ صيتها الى اقطار العالم ، حتى انهــا كثير من المهاجرين والفقراء . فكانوا يجدون فيها العمل ، وبعض الاحيان الثروة.

٤

وكان ان غمرت البلاد التي منها صاحبنا ابو القفة أزمةٌ شديدة اخــذت بخناقها ، فدكّت الثروات واهلكت التجارات ، فكانها الازمة التي يتخبط بها العالم الآن . وقد اقفلت في وجه صاحبنا ابواب الرزق فبات على اشدّ حالات الفقر . وكان اذا مرّ به الذين كان يحسن اليهم يحوّلون عنه وجوههم ويتجنبونه كمــا يُتجنب الابرص والاجرب . فضاق صدره بل ضاقت الدنيا في عينيه . وكان اذا جاء بيته مساء لاقى من قوارص امرأته ما يزيــد في كربته . فانها كانت تواجهه بكلام جاف غليظ ، او تذكّره بما كانت تؤدي لــه من النصح ايام كانا في رغد العيش ومجبوحته ، ليكفّ عن احسانه وكرمه . وأيسر ما كانت تقول له مثل هذه الجمل :

ــ اين من اكرمت ومن اسعدت ومن دعوت الى طعامك ؟ اين فائــدة الصنيع والمعروف ؟ قد استجهلك الناس فذق طعم ما قدمت . وهل بلغ احد مــا بلغت من الجنون ، فانك قــد اطعمت البحر « اصنع جميــلًا وارم في البحر .... » الى غير ذلك.

وسمع يوماً صاحبنا بقصة الجزيرة ، وان موارد الرزق فيها كثيرة . فاعدّ عدّته وابحر وامرأته اليها . ولما وصلاها ذهبا توًّا الى المطعم ، فاقاما فيه يأكلان ويشربان ثلاثة ايام . حتى اذا انتهت هذه المدّة ، جاء مدير المطعم وسأل الرجل عما هو مزمع ان يصنع ، فاجاب :

ـــ نحن غريبان في هذه الجزيرة ، نفتش عن عمل نعيش به . وما لنا المام بشيء ، لاننا كنا على جانب وافر من الثروة ، ثم افتقرنا .

ـــ هل تخدمان في هذا المطعم ؟ فاننا بحاجة لغسّالة ، و« وغلام » يقدم الطعام .

ـــ يعزّ علينا ان نصل الى هذه الدرجة من الفاقة ... ولكن « ان لم يكن ما تريد فارد ما يكون ! »

ولما اعلم امرأته بالامر ، اخذت تنتحب وتبكي .

وكان لمدير المطعم اولاد صغار ، فدفعت مدامته ثيابهم للمرأة لتغسلها في المطبخ ، فعضّت على جرحها ، وجلست امام « اللكن » تفرك الثياب ، وعقلها شارد ، وقلبها اسود .

ثم حانت منها التفاتة الى الجدار ، فاذا القفة ... قفتها التي وضعت فيها الطعام ، والقاها زوجها في البحر ، معلقة هناك . فتساقطت الدموع من عينيها ، واخذت تشهق كانها ولد صغير .

وكان ان دخلت المطبخ في اثناء ذلك امرأة المدير ، فرأتها على تلك الحال ، فتطيّرت وغضبت وصاحت بها :

ـــ يا لكِ من شقيّة ! ما هذا البكاء ؟ اتغسلين ثياب اولادي وتبكين ؟ تباً لك من امرأة حمقاء ! اغربي من وجهي ... لا رأيت بعد اليوم سحنتك المشؤومة !

فقامت تتعثّر باذيالها حتى اتت زوجها فاخبرته بما كان ، فطيّب خاطرها . ثم قصد المدير ، فاطلعه على ما بدر من امرأته ، واردف قائلًا :

ـــ يا سيدي المدير ، ليس الامر كما توهمت سيدتي . فان بكاء امرأتي لم يكن لغسلها ثياب الاولاد ، حفظ الله اولادكم ، ومتّعكم بهم . انما كان

بكاورها لقفة رأتها في جدار المطبخ : وهذه القفة هي قفتها ، وكان من امرها كذا وكذا . . .

واخبره بقصة القفة .

فما اتمّ حديثه حتى صاح به المدير :

ـــ او انت صاحب القفة !!!

ثم ارتمى عليه فعانقه وقبّله . ثم جرّه بيده ، وهو ينادي : « هـذا هو صاحب القفة . »

فاجتمع عليهما خدّام المطعم والناس المارّون من هناك ، واخـذوا كلهم ينادون : « هذا هو صاحب القفة » . وصاحبنا مبهوت يفتح عينيـه ، وينظر الى القوم متسائلًا عمّا نزل بهم .

وبعد ان عاد الهدوء قليلًا ، قال له المدير :

ـــ ان الشركـة التي تستثمر الجزيرة كان من امر اعضائها ان قفتـك خلصتهم من الهلاك . . . وقد قررت ان تجعل صاحب القفة ، ان وجدته ، غنيًا سعيدًا ومديرًا لهذا المطعم مكافأة له على صنيعه . . والحمد لله قـد وجدناك . . .

وتابع « جرّاب » قائلًا : غدًا نتزل الى الجزيرة ونشاهد هذا المطعم الذي يدعى « مطعم القفة » ، وقد كتب على جدرانه على شكل رسوم منقوشة في المرمر ، هذا المثل :

اصنع جميلًا وارمِ في البحر .